محمود شلبي

ليس كمثله شيء

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

ليس كمثله شيء

محمود شلبي

ليس كمثله شيء

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الاهداء . . . .

اللهم . . . منك . . . وإليك

محمود شلبي

الطبعة الأولى

١٩٨١

مقـدمة

الحمد لله رب العالمين . . .

والصلاة والسلام . . . على رسول الله . . .

وبعد . . .

التوحيد . . . أو معرفة الله . . . بحر البحار . . . وسر الأنوار . . .

فهو حقيقة الحقائق . . .

من أشـرق في قلبه نـوره . . . أدرك من كل شيء . . .

ومن لم يشرق في قلبه منه شيء . . . غاب عنه كل شيء . . .

ولم أعلم في حياتي كلها . . . جملة شملت حقائق التوحيد . . . مثل قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ !!!

ولقد رأيت أن أعرض بعض عجائبها . . .

وكيف السبيل إلى تذوقها ؟ . . .

فجعلت الباب الأول . . . في كيفية ذوقها . . .

والثاني . . . في إثبات الإرادة الحرة لكل إنسان . . .

والثالث . . . في إثبات افتقاره إلى ربه افتقاراً تاماً . .

والرابع . . . في إثبات حقيقة الإنسان . . . وأنه خُلق ليكون عبداً . . . لله .

والخامس . . . في ذلك الهتاف الخالد . . . الذي هتف كليم الله . . .

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . ﴾ !!!

وكيف بلغت أقصى مراتب الإعجاز . . . في احتواء . . . مفاتيح التوحيد الكبرى !!!

ومن تلك الأبواب الخمسة . . . تتكامل أمام عوينات القلوب . . . قلوب أهل النور . . . صورة للتوحيد الصافي . . . وكيف يكون ؟!

ذلك التوحيد . . . الذي أعجز كتاب الله . . . الخلق جميعاً . . . حين أجمله في قوله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . ﴾ !!!

القاهرة في ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

ليْس . . كمِثْلِه . . شَيْءٌ . . ؟!

قلبك . . .

هو الأداة الوحيدة . . . التي تستطيع أن تتوجه بها إلى ربك . . .

فإن توجهت بأداة أخرى . . . وجدت الطريق موصداً . . .

إن توجهت إليه بعقلك وحده . . . زاغ بك زيغاً شديداً . . .

وإن توجهت إليه بخلْقه . . . حجبك الخلق عنه حجاباً غليظاً . . .

وإن توجهت إليه بأسبابك . . . شردت

الأسباب . . . بك عنه . . . شروداً بعيداً . . .

ولكن بتلك اللطيفة الربانية . . . التي اسمها « **القلب** » . . . بها وحدها . . . تستطيع أن تتوجه إليه تعالى !!!

لماذا هذا ؟!

أيجوز لعضو من دون الأعضاء جميعاً . . . أن يحتكر الاتصال بالله ؟!

كلا . . . ما هو باحتكار . . . وإنما كذلك « **رَكَّبَكْ** » . . . الواحد الأحد !!!

فمن الحتم . . . إن أردت أن تتوجه إليه سبحانه . . . أن تفتح قلبك . . . لتتموج منك أمواج الفؤاد إلى بارئها . . .

ولكن . . . ربك الذي . . . تتوجه إليه بقلبك . . .

كيف هو ؟!!

هذا الذي لا إله إلا هو . . .

هذا الذي تتوجه إليه . . . ويتوجه إليه كل شيء . . .

هل تعتقد أن عقلك . . . يستطيع له تصوراً ؟

مستحيل . . . ثم مستحيل . . . ثم مستحيل . . .

لأن عقلك أداة إدراك للمحدود . . . أما اللامحدود . فإنه يرتد عنده وهو حسير !!!

قالوا . . . ويقولون . . . وسوف يقولون . . . في تصور « الله » ما شاءت لهم الأهواء أن يقولوا . . .

واختلفوا . . . ويختلفون . . . وسوف يختلفون . . .

في الذات . . . في الأسماء . . . في الصفات . . . في الأفعال . . . في الشئون !!!

والبشر فيما اختلفوا فيه . . . من ربهم . . . قد يُعذرون . . . وقد لا يُعذرون . . .

لأن الحقيقة . . . التي فيها يختلفون شيء وراء عقولهم . . .

فهم فيما فيه يختلفون . . . يدورون من مبتدإهم إلى منتهاهم . . . ثم يعودون من منتهاهم إلى مبتداهم !!!

ثم تسألهم : هل اتفقتم على شيء ترتضيه العقول جميعاً ؟!

فأجاب الجميع : بل لم نستطع الوصول إلى شيء !!!

فإذا كان هذا شأن العقول . . . فما بال القلوب ؟!

القلوب مؤهلة . . . لأن تعلم أن ربها سبحانه . . .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ !!!

فما قصة هذه القلوب ؟!

القلب . . . قلبان . . .

مفتوح . . . إلى الله . . .

ومفتوح . . . إلى ما سوى الله . . .

فإن انفتح القلب إلى الله . . . خرج من الظلمات إلى النور فوراً . . .

وإن انفتح إلى ما سوى الله . . . خرج من النور إلى الظلمات فوراً . . .

إنه ناموس أوتوماتيكي . . .

يسري . . . ويجري . . . في كل إنسان . . . وهو لا يدري !!!

قلبك عَدَّاد . . .

يعُدُّ . . . لك أو عليك . . .

يسجل . . . لك أو عليك . . .

يسجل . . . لك . . . إن خيراً فخير . . .

ويسجل عليك . . . إن شراً فشر . . .

طوعاً . . . وكرهاً . . .

إذا اتجه قلبك إلى الله . . . استنار فوراً . . . بمقدار إخلاصك في التوجه . . .

وإذا اتجه إلى ما سواه . . . أظلم فوراً . . . بنسبة إسرافك في الضلال . . .

وكلما أتيت طاعة . . . ازددت نوراً . . .

وكلما ارتكبت معصية . . . ازددت ظلاماً . . .

وهكذا . . . نظام رهيب عجيب !!!

بل أعجب من هذا . . . من أمر القلوب !!!

إذا كان قلبك مفتوحاً . . . إلى الله . . . التقط فوراً الموجات العليا . . . موجات الرحمة والرضى والسكينة . . . المرسلة أبداً وأزلاً . . . من الرحمن الرحيم . . .

وإنما لا تلتقطها . . . إلا القلوب التي في مقامات النور . . . المتوجهة حقاً إلى ربها . . .

والعكس صحيح . . . إذا توجه قلبك إلى ما سواه . . . التقط فوراً . . . الموجات السفلية الظلمانية . . . وانغلق فوراً عن التقاط الموجات العليا . . .

طبق الأصل . . . من جهاز الراديو . . . إذا فتحته على الموجة القصيرة . . . لا يلتقط إلا إذاعات الموجة القصيرة . . .

وإذا فتحته على الموجة الطويلة . . . لا يلتقط إلا إذاعات الموجة الطويلة !!!

كذلك قلبك . . . بل هو أدق . . . وأرق . . .

وأحكم . . . وأشد حساسية . . . وأسرع تأثراً !!!

وهذا يفسر لك ما غمض على الأكثرين . . .

لماذا ينفعل قلب عند سماع الوحي . . . ولا تنفعل قلوب عند سماع نفس الوحي ؟!

الجواب . . . الذي انفعل . . . كان في مقامات النور . . . مفتوحاً قلبه على الله . . . فالتقط فوراً قلبه موجات مقامات النور . . . موجات الوحي . . . الموجات العليا . . . وما فيها من رحمات وسكينة ورضى . . .

والذي لم ينفعل كان في الظلمات . . . فانغلق عن الموجات العليا . . . وانفتح على الموجات السفلى . . . الموجات الظلمانية . . . موجات الشياطين !!!

فبينما تجد أهل النور يفرحون بما أنزل ربهم . . . تجد أهل الظلمات ينفرون . . . ويشمئزون مما أنزل ربهم !!!

قال تعالى :

﴿ وإذَا ذُكِرَ اللهُ وحْدَهُ اشمَأَزَّتْ قلوبُ الذينَ لا يُؤْمنونَ بالآخِرَةِ ، وإذا ذُكِرَ الذينَ مِن دُونِهِ إذَا هُمْ يَسْتَبشِرُونَ . ﴾ .

[الزُمُر ٤٥]

هذا هو شأن القلوب . . .

وهو يفسر لك . . . ذلك العدد العديد من الآيات القرآنية . . . التي تشير إلى أن قلوب الذين كفروا لا يعقلون بها . . . أو على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقْرا . . . أو . . . جَعَلْنا بينك وبين الذين لا يُؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا . . . أو . . . وجَعَلنا من بين أيديهم سدًّاً ومِن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يُبصرون . . . أو . . . لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بها ، ولهم أعينٌ لا يُبصرونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون . . . أو . . . سَيذكَّرُ مَن يخشى ، ويتجنَّبها الأشقى . . .

إلى آخر تلك النصوص المقدسة . . . التي تسجل أن قلوب الذين كفروا . . . أهل الظلمات . . . لا تستطيع أن تلتقط الموجات العليا . . . الموجات الصادرة

من مقامات النور . . . كما لا يستطيع جهاز الراديو المفتوح على الموجات الطويلة أن يلتقط المـوجات القصيرة . . .

وهذا مفتاح خطير . . . يفتـح لك ذلـك السر الخطير . . .

لماذا ينفعل قلب بالوحي ، ولا ينفعل آخر بالوحي نفسه ؟!

فإذا علمت ذلك من أحوال قلبك . . . فعليك أن تفتح قلبك إلى الله رأساً . . .

لتخـرج من ظلمـات « الأنـا » . . . إلى نـور « الله » . . .

فإذا ما دخلت مقامات النور . . .

بدأت تدرك شيئاً فشيئاً . . .

مـا معنى قول ربـك سبحـانـه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . ﴾ ؟!!

لأن قلبك أصبح مستعداً . . . لأن يلتقط موجات الإذاعات العليا . . .

وكلما ماجت موجة إلى شغاف فؤادك . . .

تذوقت شيئاً فشيئاً . . . من بحار أنوارها . . .

هنالك تدرك . . . أن الله تعالى إذا قال :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . . . إنما المراد شيء خطير خطير . . . المراد . . .

ليس كمِثل ذاته شيء . . . أي . . . ليس كمِثل ذاته ذات . . .

وليس كمثل أسمائه أسماء . . .

وليس كمِثل صفاته صفات . . .

وليس كمثل شئونه شئون . . .

وليس كمثل أفعاله أفعال . . .

وليس كمِثل سمعه سمع . . .

وليس كمثل بصره بصر . . .

وليس كمثل قدرته قدرة . . .

وليس كمثل نوره نور . . .

وليس كمثل علمه علم . . .

وليس كمثل أحديَّته أحدية . . .

وليس كمثل مُلكه مُلك . . .
وليس كمثل رحمته رحمة . . .
وليس كمثل سلطانه سلطان . . .
وليس كمثل كلامه كلام . . .
وليس كمثل إحسانه إحسان . . .
وليس كمثل حُبه حُب . . .
وليس كمثل إكرامه إكرام . . .
وليس كمثل عطائه عطاء . . .
وهكذا . . . وهكذا . . . إلى ما لا يتناهى !!!

بحر . . . بل بحار . . . بل ما وراء البحار . . . من الأنوار . . . والأسرار . . . التي ليس لها من قرار !!!

كل أولئك يتدفق إلى قلبك . . . وأنت مفتوح القلب . . . إليه سبحانه . . .

وأهل النور . . . في إدراك تلك الحقيقة . . . درجات . . .

كلما كان المرء منهم أرقى . . . كلما ذاق أكثر . . . وأدرك أكثر . . .

وهـذا ما يمكن أن نسميـه « نسبيـة المعـرفـة بالله » . . .

فما يدركه الأعلى . . . لا يدركه . . . ولا يستطيع أن يدركه الأدنى منه . . . ولو قليلاً !!!

وكـل ذي درجـة . . . محجـوب عمـا أدركـه وذاقه . . . ذو الدرجة التي هي أعلى . . .

« وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ . » . . . وهكذا !!!

وهذا يفسر لك . . . لماذا ينكر أهل الدرجات الدنيا . . . على أهل الدرجات العليا ؟!

لأن الأعلوْن . . . يبصرون ويذوقون ويدركـون ويكشفون . . .

ما لا يبصر . . . ولا يذوق . . . ولا يدرك . . . ولا يكشف . . . الأسفلون !!!

نظام عجيب . . . ثمَّ عجيب . . .

ثم هو عن أكثر الخلْق يغيب !!!

فتأمَّل . . . صُنع الله . . . الذي أتقَنَ كل شيء !!!

فالقلوب وحدها . . . هي التي تستطيع بها الناس . . . أن يتوجهوا إلى ربهم . . .

ثم القلوب إذا اتجهت إلى ربها . . . خرجت فوراً من ظلماتها . . . إلى نور ربها . . .

فإذا دخلت . . . أبصرت أعينها . . . وسمعت آذانها . . . وفقهت قلوبها . . . وانكشفت لها من حقائق الحق . . . ما شاء الله لها أن ينكشف . . .

وأمدَّها الله . . . بنسبة آستعدادها . . . وزادها من فضله . . .

فإذا ما استعدت للترقي . . . رفعها إلى الدرجة التي فوقها . . .

﴿ نَرْفَعُ درجاتٍ مَّن نَّشَاءُ . . . ﴾ . . .

حتى تبلغ . . . ما شاء الله . . . أن تبلغه من القُرب . . .

أما إذا انقلبت القلوب عن ربها . . . وتوجهت إلى ما سواه . . . فقد خرجت فوراً من النور إلى الظلمات . . . فانعزلت فوراً عن الموجات العليا . . . وتحقق منها أوتوماتيكياً . . . ﴿ **لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بها ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بها ، ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها . . .** ﴾ !!!

لا لأنهم لا قلوب لهم . . . ولا أعين لهم . . . ولا آذان لهم . . . ولكن لأنها مفتوحة على موجات ظلمانية . . . على الموجات السفلى . . .

فهي معزولة أوتوماتيكياً عن الموجات العليا . . .

ولا تحسبنَّ أني ألقي إليك . . . بتلك النواميس جزافاً وتجديفاً . . .

معاذ الله ! . . .

إنما هي حقائق عليا . . .

منَّ الله تعالى بها . . .

واستنبطت بإذنه وتوفيقه . . . مِن كتابه المكنون . . . وأحاديث رسوله العظيم !!!

ولو شئت الدلائل عليها . . . ما اتسع هذا الكتاب لسردها !!!

ولكنها إشارات . . . تُغني عن عبارات . . .

وقطرات . . . تغني عن بحار . . .

أسوقها إليك سوْقا رفيقا . . .

لتتحقق إن كنت مستعدا للتحقق . . .

أن التوحيد . . . الذي هو حجر الأساس من كل دين . . .

إنما له أبواب . . .

وأن لكل باب مفتاحا . . .

فمن مفاتيح التوحيد العُلى . . .قوله تعالى . . .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ !!!

وأن هذه الفقرة . . . من ثلاث كلمات . . . بلغت من الإعجاز أقصاه . . . ومن التركيز منتهاه !!!

وأنها صُلب التوحيد . . .

والعمود الفقري من معرفته سبحانه . . .

تنشعب منها . . . بحار . . . وأنهار . . . وجداول المعرفة بالله تعالى . . .

وأنه لا سبيل إلى ذوقها ومذاقها . . . إلا أن تفتح قلبك . . . إليه تعالى . . .

وأنه سبحانه . . . إن شاء . . . سوف يَمُنُّ عليك . . . بما يناسب إستعدادك من فهمها . . .

هنالك . . . سوف تغرد الأغرودة العليا : . .

وسوف تموج بالموجة العظمى . . .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ !!!

ليس كمثله شيء !!!

ليس كمثله شيء !!!

إرادتك . . حرَّة . . ؟!

الجمال . . .

الإنسيابي . . . المكنون في تلكم الآيات . . .
بلغ ما لم يخطر على قلب بشر !!!

﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأمانَةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ ، فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها ، وأشفَقْنَ مِنها ، وحَمَلَها الإنسانُ ، إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً .

﴿ لِيُعذِّبَ اللَّهُ المنافقينَ والمنافقاتِ ، والمشركينَ والمشرِكاتِ ، ويَتوبَ اللَّهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وكان اللَّهُ غفوراً رَّحيماً . ﴾

[الأحزاب ٧٢ و ٧٣]

من بديهيات التفسير . . . أن الأمانة . . . **هي** التكليف . . .

ومن بديهيات التكليف . . . أنه لا تكليف إلا إذا كانت إرادة الكائن المكلف حرة تماما . . . مائة في المائة !!!

فمكنون أعماق « **إنَّا عرَضْنا الأمانة** » أي إنا عرضنا . . . الإرادة الحرة . . . على جميع الكائنات، « **السماوات والأرض والجبال** » . . . على أن نكلفها بعد ذلك . . . على أن نأمرها بأوامر ، وننهاها . . .

أي . . . إرادة حرة . . . ويقابلها تكليف . . .

فماذا حدث من تلك الكائنات كلها ؟ !!

« **فأبيْن أن يحملنها** » فرفضن رفضا تاما . . . أن يحملن تلك المسئولية !!!

« **وأشفقن منها** » تمام الإشفاق . . . لما يترتب عليها . . . من حساب وعقاب !!!

ثم ماذا حدث ؟ !

تقدم كائن صغير . . . اسمه « **الإنسان** » . . .
وقال : أنا لها !!!

« **وحملها** » بتمامها وكمالها « **الإنسان** » جنس الإنسان . . . ذكرا أو أنثى . . . حملها كل إنسان . . .

« **إنه كان** » دائما وأبدا . . . ما دام في هذه الدنيا . . .

« **ظلوما** » شديد الظلم لنفسه ولغيره . . .

أو : شديد الإظلام . . . لأنه خُلق من مادة التراب المظلمة . . .

« **جهولا** » شديد الجهل . . . ومن جهله أن حمل شيئا . . . لا يفكر في عواقبه !!!

وطبيعي . . . أن الله تعالى لم يأخذ رأي السماوات والأرض والجبال : هل تحمل أو لا تحمل ؟ !

ولم يأخذ رأي الإنسان : هل يحمل أو لا يحمل ؟ !

قال تعالى :

﴿ ما أشهَدتُهُمْ خَلْقَ السماواتِ والأرضِ ، ولا خَلْقَ أنفُسِهِمْ . . . ﴾ .

[الكهف ٥١]

وإنما المعنى أن السماوات والأرض والجبال . . . خُلقت مسخرات أوتوماتيكيا . . . لا إرادة حرة لها . . .

فهن لا يصلحن بحكم تـــركيبهن أن يحمـلن أمانة . . . تقوم أصلا على حرية الإرادة . . .

وأن الإنسان . . . خلقه الله . . كائنا ذا إرادة حرة . . . تماما . . .

فهو الكائن الذي يصلح . . . تماما . . . بحكم تركيبه . . . لحمل الأمانة . . .

لأن يُكلف . . . لأن يُؤمر ويُنهى . . .

ثم يحاسب بعد ذلك . . . هل نفذ الأوامر . . . وانتهى عن النواهي ؟ !

فإن فعل . . . كافأه الله أعظم المكافأة . . .

جنات عرضها كعرض السماوات والأرض . . .

وإن لم يفعل . . . عاقبه عقابا أليما . . .

ناراً وقودها الناس والحجارة . . .

فماذا فعل ذلك الكائن العجيب ؟ !

نظرة واحدة إلى تاريخه . . . من لدن آدم . . تدل دلالة قاطعة . . . على فشل الأكثرية فشلا تاما في تجربته !!!

وباستثناء . . . القلة المؤمنة . . . وهي نسبة لا تذكر . . . بالنسبة إلى الأعداد الهائلة . . . التي تتزاحم فوق هذه الأرض . . .

لا تجد إلا كائنات . . . أكثرها لا يدري : لماذا خُلقوا ، وإلى أين ينتهون ؟ !!

هل فكر هؤلاء يوما في حقيقة أمرهم ؟ !

هل فكروا أن هناك الها . . . خلقهم لحكمة جليلة ؟ !

بالتأمل في اسلوب حياتهم . . . تخرج بنتيجة واحدة . . .

إنهم لا يعنيهم من ذلك كله شيء !!!

فما السر في هذا ؟ !

هل يعقل ألا يهتم الإنسان بأمر نفسه ؟ !

لذلك وحده . . . سر رهيب . . .

مكنون في ذلك المفتاح العجيب !!!

﴿ نَسُوا اللَّهَ
﴿ فأنسَاهُمْ أنفُسَهُمْ ﴾ !!!

.ولكن كيف ينسى هؤلاء جميعا الله ؟ !

وهل هم ذكروه يوما . . . عم عادوا فنسوه ؟ !

كلا . . . وإنما أعماق الأمر . . . أنهم رفضوا فكرة « الله » أصلا . . .

حذفوا الله . . . من تفكيرهم . . . فتخلخلت جميع الحقائق . . . في عقولهم . . . كمن يرى الصورة معكوسة منكوسة . . .

فكان العقاب الأوتوماتيكي . . . فورا . . . « فأنساهم أنفسهم » !!!

حـذف من تفكيرهم . . . مـا فيه صـلاح حالهم . . .

وهذا من أشد أنواع العقاب . . . والعذاب !!!

أن تعيش . . . عدوا لنفسك !!!

تدأب على هدمها . . . وتدميرها . . . والإنحطاط بها إلى أسفل سافلين !!!

ولكن لماذا حدث هذا من أولئك الملايين . . . الذين مرُّوا ويمرون . . . في هذه الحياة ؟ !!!

تجد ذلك مكنونا في قوله تعالى :

﴿ . . . أمْ عَلَى قُلُوبٍ أقْفَالُها ﴾ ؟ !

[محمد ٢٤]

والمعنى : بل على قلوب أقفالها . . .

بل الحقيقة . . . أن قلوب هؤلاء الذين لم يتدبروا هذا الكتاب الذي أنزلته إلى الناس كافة . . .

حقيقة أولئك الذين لم يتفكروا في حقيقة أمرهم . . .

أن على قلوبهم أقفالا !!!

أيعقل هذا . . . ايمكن أن يكون على القلب قُفل ؟ !

نعم . . . ثم نعم . . .

وصدق ربي . . . ثم صدق !!!

إن القلوب تفتح وتقفل . . . تماما كما تفتح جهاز الراديو وتقفله . . .

بل القلوب أسرع وأسرع . . .

إذا توجَّه قلبك إلى الله . . . انفتح فورا على موجات النور . . . فالتقطها فورا . . . واقفل تماما عن موجات الظلمات . . . فلا يلتقطها . . .

والعكس صحيح . . .

إذا توجه قلبك إلى غير الله . . . انفتح فورا على موجات الظلمات . . . فالتقطها . . .

واقفل أوتوماتيكيا . . . عن موجات النور . . . فلا يلتقطها . . .

تلك حقيقة . . . عميقة . . . سحيقة . . . دقيقة !!!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون !!!

افتح الراديو على موجة « صوت العرب » مثلا . . . يلتقط فورا موجاتها . . . ويقفل أوتوماتيكيا . . . عما سواها من موجات . . .

ثم افتحه على إذاعة « البرنامج العام » مثلا . . . يلتقط موجاتها . . . ويقفل عما سواها . . .

وكلما كان القلب ارقى . . . التقط موجات أرقى . . . موجات أعلى . . .

وكلما كان القلب . . . غليظا . . . التقط موجات اكثف واظلم . . . موجات سفلَى . . .

هناك فتح . . . واقفال في ملكوت القلوب . . .

ولذلك كان تعبير كتاب الله دائما . . . عن أحوال توجه القلب إلى الله بالفتح . . .

قال تعالى :

﴿ إنَّا فَتَحْنا لكَ فَتْحاً مُّبِيناً . ﴾

[الفتح ١]

إنَّـا نحن الله . . . فتحنـا لـك . . . يـا أرقى إنسان . . . فتحا واضحا جدا إنه أعظم ما فتحنا . . . لقلب من القلوب ! !

إنـا فتحنا قلبـك . . . إلى درجات هي أعلى الدرجات . . .

حيث يلتقط فورا . . . أعلى موجات النور ! ! !

وكان تعبير كتاب الله . . . عن أحوال توجه القلب إلى غيـر الله . . . بالإقفـال . . . أو الطبـع . . . أو الختم . . . وكلها تفيد الإغلاق . . . إغلاق القلب عن مـوجات النـور . . . فينفتـح أوتـومـاتيكيـا . . . على الموجات الظلمانية . . . الموجات السفلى . . .

كتلك الآيــة التي فيهــا : ﴿ أمْ عَـلَى قلوبٍ أقفالُها ﴾ ؟ !

وكقوله :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وعَلَى سَمْعِهِمْ ، وعلى أبصارِهِمْ غِشاوَةٌ . . . ﴾

[البقرة ٧]

هذا عن ملكوت القلوب . . . قلوب بني آدم . . .

هي دائما في إحدى حالتين . . . لا ثالث لهما . . . على الإطلاق . . .

إما متوجهة إلى الله . . . أي منفتحة على الموجات العليا . . .

وإما متجهة إلى ما سواه . . . أي منفتحة على الموجات السفلى . . .

والقلب سريع التقلب جدا . . .

فقد يؤمن ويكفر في اللحظة الواحدة !!!

إذا اتجه إلى ربه . . . فهو مؤمن . . .

وإذا انقلب في نفس اللحظة . . . عن ربه فهو كافر !!!

ولو انكشفت تلك الحقيقة الخطيرة لكثير من

المؤمنين . . . لخافوا أشد الخوف على أنفسهم . . .

وهي الحقيقة التي تلألأت . . . لرسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . . فكان كثيرا ما يردد :

﴿ يا مُقَلِّبَ القلوبِ ، ثبِّتْ قلبي على دينك ﴾ !!!

والذين لم يعظم حظهم من العلم بالله . . . تخفى عليهم تلك الحقيقة . . . ويظنون أنهم ما داموا قد أعلنوا اسلامهم . . . وانتظموا على أداء الفروض . . . فقد ثبتوا على الخط المستقيم !!!

ولو ارتقوا قليلا . . . لذابت تلك الأوهام من صدورهم . . .

وتبينوا أن القلوب تتقلب بين لحظة وأخرى . . .

هذا عن الإنسان . . .

فماذا عن الله ؟ !

الله سبحانه وتعالى . . . لا تتوقف ولا تنقطع عطاياه . . .

إن أمواج العطاء الإلهي . . . تموج من الأزل إلى الأبد . . . بلا توقف . . .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ
﴿ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ
﴿ مِنْ عطاءِ ربِّكَ
﴿ وما كانَ عطاءُ ربِّكَ مَحْظُوراً ﴾ .

[الإسراء ٢٠]

وتعبير « وما كان » بلغة اليوم بمعنى مستحيل . . .

ومستحيل أن يكون عطاء ربك محظورا . . .

أي : ممنوعا . . . عن أحد من خلقه . . . مهما كان . . .

وإنما هو الإنسان . . .

العقدة في الإنسان . . .

هو الذي يفتح قلبه أو يقفل . . .

فإن فتح تدفق عطاؤنا إليه . . . فورا . . أوتوماتيكيا . . .

وإن أقفل . . . لم ينفذ إليه منه شيء !!!

إن الشمس تشرق على الناس جميعا . . .

فمن تعرض لها . . . غمره شعاعها فورا . . .

ومن لا . . . لم يظفر من شعاعها بشيء !!!

إذا هو الإنسان . . .

هو الذي يقفل قلبه . . . فيحرم نفسه من كل خير . . .

أو يفتح قلبه . . . فينعم بكل خير . . .

﴿ فمن يشاءَ فلْيُؤْمِن ، ومَن شاءَ فليَكْفُرْ . . . ﴾

[الكهف ٢٩]

فأولئك الذين اقفلوا قلوبهم . . .

مساكين حقا . . . وصدقا . . . وفعلا . . .

مساكين . . . لأن أبواب الرحمة . . . مفتحة أمامهم وهم لا يشعرون !!!

لقد حرموا أنفسهم . . . أجمل ما في الحياة . . .

حرموا أنفسهم . . . لذة التوجه إليه تعالى . . .

وإن لحظة من التوجه الصادق . . . خير من لذات الدنيا وما فيها !!!

هذا عن أهل الظلمات . . .

فماذا عن أهل النور ؟ !

هم أيضاً مساكين . . . لأنهم لم يجتهدوا في التوجه إلى الله . . .

ولو فرُّوا إليه فرارا . . .

لطووا في صعودهم إليه . . . مراحل أعلى وأعلى . . .

ولكنهم مشوا إليه . . . وهم كسالى . . .

ففاتهم بذلك خير كثير . . .

﴿ وأنذِرْهُم يوْمَ الحسْرَةِ . . . ﴾ !!!

وحذرهم لحظة الحسرة . . .

يتحسر الكافر . . . إن ضيع نفسه . . . باعراضه عن ربه . . .

ويتحسر المؤمن . . . على ما فرَّط في جنب الله !!!

فهو حسرة . . . على هؤلاء . . . وعلى هؤلاء . . . على السواء !!!

فانظر إلى كائن . . . حمل الأمانة . . . أعظم أمانة . . . لم تستطع السماوات والأرض والجبال . . . أن يـ ـحملنها . . . ومن ورائه حساب غليظ . . . يوم يُعرض على إلهه الذي خلقه . . .

ثم هو يترك ذلك كله . . . ويلهو ويلعب . . . كأن هذا لا يعنيه في شيء . . .

حتى أكثر مَن آمن منه . . . لم ينهض بأعباء تلك الأمانة كما ينبغي !!!

ثم أنظر إلى الإنسان والمسألة لا تكلفه أكثر من إدارة قلبه إلى ربه . . .

ثم هو يصر على الإعراض . . .

وربه يناديه . . . ويناديه . . .

وهو ينأى . . . وينأى . . .

والمسألة غاية في البساطَة . . .

مجرد أن يتوجه بقلبه إلى ربه . . .

مسألة مجانية . . . لا تكلفه شيئا !!!

« وماذَا علَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا . . . » ؟ !!

ماذا يكلفهم . . . أن يتجهوا بقلوبهم إلينا ؟ !

لا شيء يغرمونه مقابل ذلك . . .

ومع هذا . . . لا يرغبون !!!

إنِّي . . فقيرٌ . . ؟!

لست أرغب . . . أن أدخل في ذلك الجـدل الفقهي المشهور : مَن هو الفقير ، ومَن هو المسكين ؟

تفريعا على قوله تعالى : ﴿ **إنَّما الصَدَقَاتُ للفقراءِ والمساكين** . . . ﴾ الخ الآية . . .

فذلك شيء هيّن . . .

لا يعنيني هنا في شيء . . .

لأن أهون شيء . . . هذه الدنيا ، ومـا يتفرع عليها . . .

ثم هو مستوى ضيق . . . ومنخنق يخنق انطلاقات القلوب . . . ويضعهـا في سجن القيل والقـال . . . وظلمات الدرهم والدينار . . .

وإنما الذي أعنيه هنا . . . هو : من هو الفقير . . . الذي يتكلم الله عنه . . . في قوله ﴿ **أنتم الفقراء** ﴾ . . . ؟ !

ذلك أن الله تعالى أطلق وعمَّم الوصف حين قال ﴿ **أنتم الفقراء** ﴾ . . .

فكل الناس إذا فقراء . . . غنيهم وفقيرهم على حد سواء !!!

أنت فقير . . . أنا فقير . . . هو فقير . . . هم فقراء . . .

وصفة الفقر هذه . . . عامة . . . تسري في المليونير . . . وفي المعدم . . . على سواء !!!

ومن أجل أنها صفة عامة . . . نادى الناس جميعا : « **يا أيها الناسُ ، أنتُمُ الفقراءُ** »

فلا استثناء لأحد دون أحد . . .

مهما تباينت حظوظ الناس . . . من الدنيا . . . هم جميعا فقراء !!!

الملوك . . . رؤساء الدول . . . العظمى والصغرى . . .

الرأسماليون . . . الإقطاعيون . . .

أصحاب الجاه . . . أصحاب السلطان . . . كلهم فقراء !!!

فما أعماق ذلك البحر العميق ؟ !!

أعماقه بعيدة جدا . . .

إن الإنسان . . . كل إنسان . . . إنما وجد بأمر من الله . . . « كن فيكون » . . .

فكان كائنا . . . على صورة معينة . . .

فهو مفتقر في وجوده . . . إلى الله . . .

فلو شاء الله . . . ألا يوجد . . . فهناك إستحالة أن يكون !!

وهذا هو عين الفقر . . . أن يكون كياني كله . . . مرتبط بكلمة من الله . . .

فلو لم تكن تلك الكلمة . . . ما كنت !!!

فماذا بقي لي من كياني . . . بعد ذلك ؟ !

هذا عن وجود الكائن المسمى بالإنسان . . . فانظر إليه حالة ولادته . . .

طفل . . . يولد . . . عاريا . . . حافيا . . .

لا يملك شيئا . . . ولا يعقل شيئا . . . ولا يستطيع شيئا . . .

أقصى غايات العجز . . .

ثم يربيه ربه تدريجيا . . . ويوحي إلى أمه ما يوحي . . . ويوحي إلى أبيه ما يوحي . . .

حتى يبلغا به منتهى الشباب . . . والقدرة على الإستقلال بشخصيته . . .

فماذا يكون من ذلك الكائن . . . إذا آنس من نفسه قوة ؟ !

أول شيء يبادر إليه . . . أن يكفر بربه . . . وأن يكفر بوالديه ! ! !

ولذلك كان التوجيه :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً . . . ﴾

[الإسراء ٢٣]

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . ﴾ .

[الإسراء ٢٤]

ويدخل الإنسان تجربة الحياة . . . وتموج به فتنها موجا . . .

وينسى أن ما به من نعمة فمن الله . . .

وأنه هو نفسه من صنع الله . . .

وأن جميع ما يصدر عنه . . . من كلام . . . من عمل . . . من مجهود . . . إنما هو بما جعل الله فيه من حول وقوة . . .

ينسى كل ذلك . . . وينادي : أنا . . . أنا . . . أنا !!!

ثم ما تزال الأنا . . . به . . . حتى يصنع من نفسه إلها . . . ويدعو الناس إلى عبادته !!!

وبذلك يبلغ الإنسان . . . أقصى غايات الإجرام والإظلام !!!

ولو أنه فكر في الحقيقة . . . لأدرك بدون أدنى مجهود . . . أنه مجرد كائن كان بكلمة من الله . . .

وأنه يحيا . . . بما أودع الله فيه من طاقة يستمد منها تلك الحياة . . .

وأنه ما من شيء . . . يملكه إلا وهو . . . مما آتاه الله . . .

وأنه فعلا لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا أن يشاء الله . . .

وقد هتف بتلك الحقيقة . . . ذلك العبد العظيم الكريم العليم . . . ذلك الذي اسمه « إبراهيم » . . .

حين خاطب أهل الظلام فقال :

﴿ أَتَعبُدُونَ مَا تَنْحتُون . واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؟ !!

[الصافات ٩٥و ٩٦]

والله خلقكم وما تعملون ؟ !!

والله أوجدكم . . . هو الذي صنعكم . . .

فكل ما يصدر عنكم من أعمال . . . إنما هو بما منحكم الله من قدرة على العمل . . .

هناك إذا فقر حقيقي . . . إفتقار فعلي . . . في كل إنسان . . . إلى الله . . .

وليس هذا مجرد خيال شعراء . . . أو فلسفة فلاسفة . . . أو مواعظ خُطباء . . .

وإنما هو حق اليقين . . .

وإنما دخل الغرور . . . دخل الوهم . . . على الإنسان . . . حين ظن أن الأمر يبدأ منه . . . لا من الله . . .

وأن ما هو فيه إنما هو مجهوده . . . وكدحه . . . لا مدخل لأحد فيه !!!

ونسى المسكين أن مجهوده هذا . . . ما كان ليكون . . . لولا أن وهبه الله إياه . . .

من أجل ذلك . . . يصيب الله الإنسانَ . . . أحيانا بسلب ما وهب . . .

فيسلب منه نعمة الصحة . . . ويذيقه المرض . . .

ليتذكر أن قوته . . . لا ترجع إليه . . . وإنما إلى الله . . .

ويذيقه سلب المال . . . بعد الغنى . . . ليتذكر أن أمواله . . . يملكها الله . . . وليست ملكا له . . .

ويذيقه سلب السلطة . . . بعد السلطان . . . ليتذكر أن سلطاته . . . إنما هي من الله . . . لا مدخل له فيها . . .

ويذيقه سلب الإيمان . . . بعد الأقبال . . . ليتذكر أن نعمة الأقبال على الله . . . منحة ومنّة . . . يؤتيها من يشاء . . .

ويمكنك أن تضحك من الإنسان المغرور طويلا . . .

حين تراه . . . إذا مرض . . . بعد صحة . . . كان فيها طاغيا . . .

ذليلاً كئيبا أسيفا . . . أضعف من رضيع !!!

وتستطيع أن تضحك ملء فمك . . . من رئيس دولة كبرى . . . طغى وبغى . . . بما في يده من سلطات . . .

إذا نُزِع فجأة من منصبه . . . وأُلْقِي بعيدا . . . يجوس مع الرعاع !

هنالك . . . تجده صغيرا في نفسه . . . صغيرا في الناس !!!

ويشتد بك الضحك . . . من مليونير صودرت أمواله . . . فتحول إلى هيكل آدمي . . . يبحث عن لقمة العيش . . . في ذلة عزيز قوم ذل !!!

هنالك تنقشع تلك الأوهام التي كان ينظر الناس إليه من خلالها . . .

ويبصرونه مجرد كائن فقير . . . يكدح ليحصل على لقمة العيش !!!

فإذا ما نادانا ربنا : ﴿ **يا أيها الناسُ أنتُمُ الفقراءُ إلى اللَّهِ ، واللَّهُ هُوَ الغنيُّ الحميدُ** ﴾ . . .

إنما يريد أن نتنبه . . . إلى تلك الحقيقة الدقيقة العميقة . . .

أننا مجرد كائنات . . . كانت . . . حين أراد أن تكون . . .

وأن ما بنا من نعم ظاهرة أو باطنة . . . إنما هو منه . . .

وأن حركاتنا وسكناتنا . . . إنما هي صادرة . . . من تلك القوة . . . التي منحنا إياها . . .

وأن أي فهم خلاف ذلك . . . إنما هو قلب للحقائق . . .

وأنَّ الذي يفهم غير ذلك . . . كائن مسكين حقا . . .

يتحطم تماما . . . إذا سلبت منه . . . إحدى النعم التي هو فيها . . .

لأنه يظن أنه هو مرجع ما فيه من أموال وإمكانيات . . .

ولو قد علم أن الله . . . هو الذي وهبه تلك النعم . . .

وأنه سبحانه . . . يهبها متى شاء . . . ويسلبها متى شاء . . .

لاستقام تفكيره . . . على الخط المستقيم . . .

الإفتقار إلى الله إذا . . . حقيقة متحققة . . . من كل كائن . . . أدرك ذلك أم لم يدرك . . .

والحاجة إليه تعالى . . . كل الحاجة . . . قانون طبيعي . . . يسري في جميع الخلق . . .

والفرق بين الذين آمنوا . . . والذين كفروا . . .

أن الذين آمنوا . . . يدركون تلك الحقيقة . . . يدركون أنهم فقراء إلى الله حقا . . .

ويستشعرون ذلك . . . في أمرهم كله . . .

أما أهل الظلام . . . فهم لا يدركون ذلك . . . وإنما يعبدون أنفسهم . . .

يؤلهون أنفسهم . . . ويرجعون إليها كل شيء . . .

والإنسان عموما . . . إذا غفل لحظة . . . عن تلك الحقيقة . . .

إنه فقير إلى الله . . . مفتقر تماما إلى امداده ومعونته . . .

فهو مسكين حقا . . .

فكيف بمن أنكر . . . تلك الحقيقة . . . حقيقة إفتقاره إلى الله . . . من أساسها ؟ !

إنه لهو المسكين المسكين المسكين !!!

ولقد هتف الكليم . . . بذلك المعنى . . . معنى إفتقاره التام إلى الله حين نادى من أعماقه :

﴿ . . . رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

[القصص ٢٤]

وإدراكات الكليم . . . إدراكات وراء إدراكاتنا نحن جميعا . . .

إنه يعني أنه فقير أتم الفقر . . . لما أنزل الله إليه . . .

وكل شيء يحيا فيه الإنسان . . . فهو مما أنزل الله إليه . . .

ونودي أرقى إنسان . . . من ربه . . . مسجلا له أنه هو العبد الذي تحقق فيه معنى الإفتقار التام إلى ربه . . . فقال له سبحانه :

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ ؟ !

[الضحى ٨]

ووجدك ربك . . . فقيرا أتم الفقر . . .

ووجد قلبك . . . هو القلب الذي تحقق تمام التحقق بافتقاره إلى ربه . . .

« فأغنى » فأغناك أتم الغنى . . . عما سواه . . .

فأغناك . . . به . . . عما سواه !!!

و « أغنى » هذه . . . تترقرق من اسمه تعالى « **الغنيُّ الحميد** » !!!

وبمقدار إحساس قلبك بالإفتقار . . . تتدفق أمواج « الغنيّ » إلى قلبك . . .

ولقد هتف بتلك المعاني الخليل حين قال :

﴿ والذي هُوَ يُطعِمُنِي ويَسْقِينِ . ﴾ !!!

نعم . . . هو سبحانه الذي يطعم الكائنات جميعها . . . ويسقيها !!!

« وهو يُطعِمُ ولا يُطعَمُ . . . » !!!

وأجمل ذلك كله الكليم في هتافه الخالد :

« ربُّنا الذي أعطَى كلَّ شيْءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدَى . » !!!

إنيِّ . . عبْدٌ . . ؟!

مستحيل . . .

أن يـدرك الإنسـان . . . حقيقتـه في هـذا الوجود . . .

إلا إذا عرف طبيعة التركيب الذي رُكِّب فيه . . .

فما هو التركيب البشري ؟ !

أو : كيف كان التصميم الإلهي . . . لذلك الكائن المسمى بالإنسان ؟ !

قال تعالى :

﴿ في أيِّ صورةٍ مَّا شاءَ رَكَّبَكَ ﴾

[الإنفطار ٨]

هناك تركيب . . . هناك تصميم . . . فما هو التصميم الإلهي للإنسان ؟ !

الإنسان مُركب على أنه « عبد » . . . هو جهاز مصمم . . . لتصدر عنه أحاسيس العبودية . . .

ولكن العبودية لمن ؟ !

لربه . . . الذي ركَّبه !!!

ركبه الله . . . لينتج « لا إله إلا الله » !!!

فإذا انتج هذه الكلمة . . . فهو جهاز صالح . . .

وإذا توقف عن انتاجها . . . فهو جهاز سيىء . . . يجب تدميره !!!

خلق الله البشر جميعا . . . بل الكائنات جميعا . . . ليكونوا عبادا له . . .

﴿ إن كلُّ مَن في السماواتِ والأرضِ إلا آتِي الرحمن عبْداً ﴾ .

[مريم ٩٣]

ليس فقط البشر . . . بل كل من في السماوات والأرض . . .

وهـذا هـو الـوضـع الـطبيعي . . . إلـه خلق كـائنات . . . فمن الحتم أن تنقـاد تلك الكـائنـات لسلطانه . . . ومن الحتم أن تتوجه إليه !!!

وحين أراد الله تعالى أن يسجل حقيقة أرقى إنسان قال :

﴿ تبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبدِهِ ليكـونَ للعالَمينَ نذيراً ﴾ .

[الفرقان ١]

فهو « عبده » حقا . . .

هو الذي حقق أوسع معاني العبودية لله . . . من نفسه . . .

ولذلك قال فيه :

﴿ وأنَّهُ لمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدعوهُ كادُوا يكونونَ عليهِ لِبَداً ﴾ .

[الجن ١٩]

فهو « عبد الله » لا عبد شيء سواه !!!

وحين أثنى الله على كوكبة من الأنبياء الذين هم قمة قمم البشر قال :

﴿ واذكُرْ عبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أُولى الأيْدِي والأبصارِ . ﴾

[ص ٤٥]

وحين أراد أن يثنى على أهل النور قال فيهم :

﴿ وعبادُ الرحمنِ الـذين يمشونَ على الأرضِ هَوْناً . . . ﴾ .

[الفرقان ٦٣]

فـالعبـوديـة لله . . . هي هـدف خلق هـذا الكائن . . . هذا الإنسان . . .

وبقدر ما يحققها الإنسان من نفسه . . . يكون قربه من ربه . . .

وفي الحديث :

« أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » !!!

وهو متوجه تماما بقلبه إلى ربه . . . وقد خشعت جوارحه جميعا . . .

هذا هو التصميم الإلهي . . . هذا هو التركيب الذي ركب عليه الإنسان . . .

ولذلك تجد في كل إنسان . . . حنينا فطريا . . . لأن يكون عبدا لشيء ما !!!

لأن يتخذ شيئاً ما له سيدا . . .

لأن يتخذ له إلها . . . يحقق عبوديته بالتوجه إليه . . .

فإذا لم يتوجه إلى ربه الحق . . . إلى الله . . . توجه حتما إلى شيء سواه . . .

وهذا هو مصدر ذلك الحشد الحاشد من الآلهة الباطلة . . . التي اصطنعها الإنسان . . . من وهمه وخياله . . . حين انحرف قلبه عن ربه . . .

« أفرأيت من اتَّخَذَ إلهه هواه . . . » ؟ !!

حين انحرف قلبه عن ربه . . . عبد هواه !!!

والأهواء لا حصر لها . . . متعددة بتعدد أصحابها . . .

فالآلهة الباطلة لذلك . . . لا تتناهى . . . لأن أهواء البشر لا تتناهى !!!

قال تعالى :

﴿ واتَّبَعُوا أهواءَهُمْ ﴾ .

[محمد ١٦]

﴿ واتَّبَعُوا الشهواتِ ﴾ .

[مريم ٥٩]

وهذا يفسر لك . . . لماذا اصطنع الإنسان . . . الأصنام . . . والطواغيت . . . ثم عبدها ؟ !!!

ولماذا عبد الإنسان الشمس . . . أو القمر . . . أو النجوم . . .

﴿ لا تَسْجُدُوا للشمسِ ولا للقَمَرِ واسجُدُوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ ﴾ .

[فصلت ٣٧]

ولماذا اصطنع الإنسان . . . من الملوك والرؤساء . . . آلهة . . . ثم عبدها !!!

﴿ وقالَ أنا ربُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .

[عبس ٢٤]

والأنبيـاء . . . يـوجهـون البشـر . . . إلى تلك الحقيقة دائما . . .

أن يتجهوا بقلوبهم إلى الإله الحق . . .

﴿ ما كانَ لبشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ، ثُمَّ يَقُولَ للناسِ كونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ولكن كونُوا ربَّانِيينَ ، بما كنتم تُعَلِّمُونَ الكِتابَ وبما كنتُم تَدْرُسُونَ . ﴾

[آل عمران ٧٩]

مستحيـل أن يوجـه الأنبياء النـاس إلى عبـادة ذواتهم . . . أو إلى عبادة شيء سوى الله . . .

ولكن كونوا جميعا ربانيين . . . متجهين بقلوبكم إلى ربكم وحده . . .

ويفسر لك حقيقة . . . أن الإنسان كائن مركب ليكون عبدا . . .

الحاح الأمم التي ألغت الأديان . . . على اصطناع آلهة لشعوبها . . . لها يقدسون !!!

فتراهم يعظمون مؤسسي مذاهبهم الاقتصادية أو

الاجتماعية . . ويحجون إلى قبورهم يوميا !!!

وذلك لاحساسهم بالفراغ الهائل . . في تكوينهم . . .

هناك تركيب في أعماقهم . . . ينادي بضرورة إله . . . أي إله . . . إليه يتجهون !!!

فلما لم يجدوه إلها حقا . . . توهموه . . . في صورة بشر . . . أو جثة زعيم . . . أو ضريح عظيم !!!

وحجوا إليه ألوفا إثر ألوف !!!

كل أولئك . . . لأن تركيب الإنسان أن يكون « عبدا » . . .

إذا علمت تلك الحقيقة . . .

كان تصحيحها . . . وطريقها المستقيم . . . أن يتجه ذلك العبد . . . إلى إلهه الذي خلقه . . .

هنالك يتواءم . . . ويتوافق . . . وينسجم مع أمواج الوجود كلها . . .

ينسجم مع العبودية العامة للكائنات جميعا . . .

إن كل مَن في السماوات والأرض إلا آتى الرحمنِ عبداً !!!

والمؤمن . . . كائن أدرك . . . وعرف أنه مجرد عبد لربه . . .

وأن مقتضى العبودية . . . يفرض عليه أن يطيع سيده . . . في كل ما أمر . . .

يشعر أنه عبد لربه . . . لأنه مفتقر إليه تماما في كينونته ووجوده واستمراره في حياته . . .

أما الكافر . . . فهو لا يدرك تلك الحقيقة . . . وإنما يعبد هواه . . .

وذلك أقصى ما يتصور من انحطاط الادراك !!!

أو يعبد أي شيء سوى الله . . .

﴿ إنَّ الـذينَ تَـدْعُـونَ من دُونِ اللهِ عِبـادٌ أمثالُكُمْ . . . ﴾

[الأعراف ١٩٤]

أو يجعـل من نفسه إلهـا ، ويدعـو غيرِه إلى عبادته !!!

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُم إِنِّي إِلَهٌ مِن دونِهِ فذلكَ نجزيهِ جَهنمَ . . . ﴾

[الأنبياء ٢٩]

وكل هذه الاختلالات والاضطرابات العقلية . . . إنما كانت لسبب واحد . . .

إن كل إنسان مركب تركيبا عبوديا . . .

أن يكون عبدا . . . لشيء . . . ما . . .

وهذا الشيء . . . هو « الله » . . .

ومن أجله . . . خُلِق الإنسان . . .

فإذا حدث واختل الجهاز . . . وانحرف اتجاهه . . . إلى شيء غير الله . . .

وجب إصلاحه فورا . . .

وإعادة ضبط المحطة . . . على موجة التوجه إلى الله وحده . . .

من أجل ذلك . . نودي الإنسان دائما . . .

﴿ فاعلم أنّهُ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾!!!

[محمد ١٩]

فكان جواب أكثر الناس دائما :

﴿ أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهـاً واحِدَاً ، إنَّ هـذا لشيْءٌ عُجَابٌ ﴾ !!!

هُوَ . . الذي . . أعْطَى . . ؟!

ونادى . . .

ذلك الكائن . . . المسمى « فرعون » من أعماق ظلماته :

﴿ فمن ربُّكُما يا موسى ﴾؟!

أقصى أبعاد الظلام . . . ينطق بها . . . أظلم ظلمات البشر !!!

من هو هذا الذي هو ربكما . . . يا هذا الذي اسمه موسى ؟!!!

فمـاذا كـان . . . من ذلــك القلب . . . قلب الكليم ؟!!

أطلقها . . . في الأرض . . . لتملأ السماوات

جميعا . . . كأوسع ما تكون الكلماتَ النورية . . اشعاعا ونورا !!!

﴿ رَبُّنا الذي أعطَى كُلَّ شيْءٍ ، خَلْقَهُ ،ثمَّ هَدَى ﴾ . [طه ٥٠]

« ربُّنا » الذي تسأل عنه يا هذا

« الذي أعطى » ويعطي . . . وسوف يعطي . . .

« كل شيء » كل ما كان . . . وما سيكون . . . وما هو كائن . . .

« خلقه » وجوده . . . وكيانه . . . وصورته التي هو عليها . . .

« ثم هدى » ثم وجَّه . . . كل شيء . . . إلى ما فيه استمرار وجوده . . .

هذا شيء في تفسير كلمات الآيةِ . . .

إلا أن كلمات التفسير . . . حين توضع بجنب كلماتِ الآية . . . تبدو كقطع من الليل مظلما . . . مرصوصة . . . بجنب قطع من النور !!!

مستحيل . . . ثم مستحيل . . . ثم مستحيل . . .
أن يستطيع بشر . . . مهما كان مستواه العلمي . . . أن يأتي بألفاظ تسع ما فيه ألفاظ الآية من بحار الأنوار !!!

لقد أطلقها الكليم . . . فنطق إعجازا . . .

وركز بحارا في قطرة . . .

وضغط كونا واسعا في ذرَّة . . .

أمواج النور . . . المكنونة في هذه الآية . . . عجيبة . . .

عجيبة . . . عجيبة . . .

سبحان من وضعها في كلمات معدودات . . .

ثم سبحان من أنطق بها لسان الكليم !!!

رتِّل معي . . . وزفزف موجها . . . مرة أخرى :

﴿ ربُّنا . . . الذي أعطى . . . كلَّ شيْءٍ . . . خَلْقَهُ . . . ثم هدَى ﴾!!!

ثم تفكر . . . هل يمكن لبشر أن يبلغ عقله من الإحاطة الظاهرة والباطنة . . . بتلك الحقائق الكليةَ . . . ما بلغتَ تلكم الآيةَ ؟!!

مستحيل . . . ثم مستحيل . . . لأن العقل البشري . . . تغيب عنه زوايا من القضايا . . . ويذكر زوايا . .

أما هذا الشمول . . . فليس في مقدور بشر !!!

ثم انظر إلى قوله :

« ثم هَدَى » . . . ثم وجَّه كل شيء . . . إلى ما فيه استمرار حياته !!!

والتوجيه هنا . . . يكون بأساليب تتعدد بتعدد الكائنات التي لا تحصى . . .

فكل كائن له ناموسه . . . الذي يهديه . . . ويوجهه نحو ما يحفظ حياته . . .

النباتات تمد جذورها في الأرض طلبا للغذاء . . .

والأوراق تتكاثر على الأغصان طلبا للشمس والهواء !!!

هذه كلها قوانين طبيعية . . . أو نواميس إلهية . . . سارية جارية في كل كائن . . . النحلةَ . . . النملة . . .

ما هو أصغر . . . أو ما هو أكبر . . . يتوجه تلقائيا . . . إلى ما يحفظ وجوده عليه . . .

الإنسان . . . يتوجه في جميع مراحله . . . إلى ما يبقى عليه حياته !!!

يقولون . . . هي الغرائز . . . تحكم تصرفات الإنسان . . .

هذا صحيح . . . ولكنْ مَن وضع في الإنسان تلك الغرائز ؟!

إنه هو سبحانه . . . « **ثُم هَدَى** » !!!

أوشكت أن أغرق تماما في بحار تلك الآية !!!

إنها واسعة . . . أوسع من السماوات . . .

لأنها اشتملت على جميع الأسرار الإلهية التي تنتظم جميع الكائنات . . . فيا للكليم !!!

كيف استطاع أن ينطق بها ؟!!!

فهرس

مقدمة ٧
ليس كمثله شيء ؟!! ١١
إرادتك ... حرّة ؟! ٢٧
إني ... فقير ؟! ٤٥
إني .. عبد ؟! ٥٩
هو ... الذي ... أعطى ؟! ٧١

أخطاء مطبعية

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	التصحيح
٢٦	١	تنشعب	تتشعب
٣٢	٩	عم عادوا	ثم عادوا

المكتبة العصرية
للطباعة والنشر
تلفون: ٢٢٧٥١٥ - ص.ب: ٨٣٥٥
بيروت - لبنان